سينما

مهرجان الجونة السينمائي 7

فلسطين حاضرة لكن أين لبنان؟

«نافذة على فلسطين 2» في «مهرجان الجونة 7» تطرح سؤالين، عن غياب توزيع سينمائي لأفلام عربية خارج مناسبة آنية، وغياب لبنان السينمائي

نديم جرجوره

مُجدّداً، يُخصّص «مهرجان الجونة السينمائي» حيّزاً لفلسطين، فحرب الإبادة الإسرائيلية، المندلعة منذ السابع من أكتوبر/تشرين الأول 2023 في قطاع غزّة، مستمرّة فيه، ومنتقلة إلى الضفة الغربية ولبنان. هذا حاصلٌ في العام الماضي أيضاً. «طوفان الأقصى» يؤجّل الدورة السادسة من موعدها المُحدّد سلفاً بين 13 و20 أكتوبر/تشرين الأول 2023، إلى موعدٍ آخر: 14 ـ 21 ديسمبر/كانون الأول من العام نفسه. حينها، يُمنح الحيّز اسماً تقليدياً (نافذة على فلسطين)، سيبقى في الدورة السابعة (24 أكتوبر/تشرين الأول ـ 1 نوفمبر/تشرين الثاني 2024).
هذه خطوة تمزج الأخلاقيّ بثقافةٍ وفنون.

مواجهة الجُرم الإسرائيلي تتمثّل بعرض أفلامٍ فلسطينية، تقول شيئاً من واقع وراهنٍ وتاريخ. في الدورة السابقة، تُعرض أفلامٌ قديمة وحديثة الإنتاج، منها «باي باي طبريا» (2023) للفرنسية الجزائرية لينا سويلم، و«باب الشمس» (2004) للمصري يُسري نصرالله بنسخة مُرمّمة (عن رواية بالعنوان نفسه للّبناني الياس خوري، صادرة عام 1988). في الدورة الجديدة هذه، هناك ستة أفلام، بينها واحدٌ مُنتج قبل 52 عاماً: «المخدوعون» (1972) للمصري توفيق صالح، عن رواية بالعنوان نفسه (1963) للفلسطيني غسان كنفاني. إضافة إلى ثلاثة أفلام تُعرض في برامج أخرى، بينها روائي قصير، مُنتج حديثاً «مابعد» (2024) للفلسطينية مها حاج (العربي الجديد، 26 أغسطس/آب 2024). هذا مطلوبٌ، رغم أنّ المطلوب الأهمّ كامنٌ في إتاحة مجال أوسع لعرض أفلامٍ فلسطينية وعربيةٍ في الصالات التجارية العربية، خارج كلّ مناسبة أو احتفال أو تكريم. المطلوب الأهمّ أنْ توزّع أفلامٌ عربية، غير تجارية أيضاً، في مدن عربية، وهذا أساسيّ. لكنّ التوزيع مشغول بأرقام ربح وخسارة، والمهتمّ/المهتمّة بسينما عربية غير تجارية غير حاصلَين على توزيع يتلاءم مع أهمية ما تطرحه أفلام عربية غير تجارية. «مهرجان الجونة السينمائي» مُكتفٍ بحدثٍ طاغٍ في الحياة اليومية، مع التنبّه إلى أنّ التوزيع السينمائي ليس وظيفته، أو وظيفة أي مهرجان سينمائي آخر.

> هناك توقٌ دائم لمُشاهدة أفلام عربية في صالات عربية

مسألة التوزيع السينمائي العربي مطروحة سابقاً. نقّاد وصحافيون/صحافيات سينمائيون قليلون يتساءلون عن سبب انسداد أفق المُشاهدة العامة لأفلامٍ عربية في غير دولها الأساسية، إنْ تُعرض تجارياً في دولها الأساسية بشكل لائق. «مهرجان الجونة السينمائي» غير مُتمكّن من فعل شيءٍ آخر إزاء الجُرم الإسرائيلي في غزّة والضفة، باستثناء إيجاد مساحة للمُشاهدة، على أمل أنْ يكون هناك مشاهدون/مشاهدات لأفلامٍ مختارة لـ«نافذة على فلسطين 2».
مسألة أخرى يطرحها البرنامج الفلسطيني: ماذا عن لبنان؟ هناك عمل واحد فقط بعنوان «مشقلب»، يضمّ أربعة أفلام قصيرة، تتناول أحوال بلدٍ وناسه في الأعوام القليلة الماضية. لكنْ، منذ 23 سبتمبر/أيلول 2024، تشنّ إسرائيل حرب إبادة أخرى في مدن وقرى وبلدات لبنانية مختلفة، صانعةً موتاً وخراباً وتهجيراً واقتلاعاً ومَسحاً، كنسخةٍ عن الحاصل في غزّة. إذاً، ما سبب غياب برنامج لبناني في مهرجانٍ، يُعلن دعماً سينمائياً لفلسطين؟ لا تنافس في الموت والإجرام ونتائجهما بين بلدين، يواجهان أبشع نظام إسرائيلي حاكم بالإبادة. لا نزاع ولا ادّعاء ولا غيرة، بل سؤال بسيط ومتواضع وعاديّ، فبعض السينما اللبنانية معنيٌّ بحروب البلد وبالحروب على البلد، وأفلامٌ عدّة تعاين وقائع تلك الحروب، عامةً أو بشكل فرديّ ذاتيّ. لا مطالبة لمهرجان الجونة السينمائي بفعلٍ محدّد، فالفعل، أيّ فعل، مُلكٌ له، ولآخرين وأخريات حقّ مناقشته نقدياً. قولُ هذا، بخصوص غياب حيّز للبنان السينمائي في دورته المقبلة، تساؤلٌ ربما لا إجابة واضحة عنه. وطبعاً، التساؤل نفسه غير ناتج من تشاوف وادّعاء وطنيّين باهتين. حرب الإبادة الإسرائيلية الجديدة في لبنان تُشبه الحاصل في فلسطين المحتلّة، والسابق عليها فيه معروفٌ وآثاره حيّةٌ إلى الآن. أفلامٌ لبنانية عدّة تتناول تفاصيل منه، ولعلّ «حرب تموز» (2006) بين إسرائيل وحزب الله تبقى الأكثر جذباً لصُنع أفلام، لبنانية أولاً، رغم قلّتها (العربي الجديد، 27 سبتمبر/أيلول، 7 و12 أكتوبر/تشرين الأول 2024).
هذه تساؤلات. الحرب مستمرّة. الكتابة أيضاً، كصُنع الأفلام ومشاهدتها.

الضاحية الجنوبية لبيروت 2006: حروب إسرائيلية لكنّ الأفلام قليلة (باتريك باز/فرانس برس)

حوار

أجرته **ندى الأزهري**

بمناسبة تقديمه «ماستركلاس» في «مهرجان وهران العربي 12»، حاورت «العربي الجديد» رشيد بوشارب في مسائل سينمائية واجتماعية وتاريخية مختلفة

رشيد بوشارب [2/1]

«أستخدم مهنتي السينمائية لأثير قضايا تهمّني»

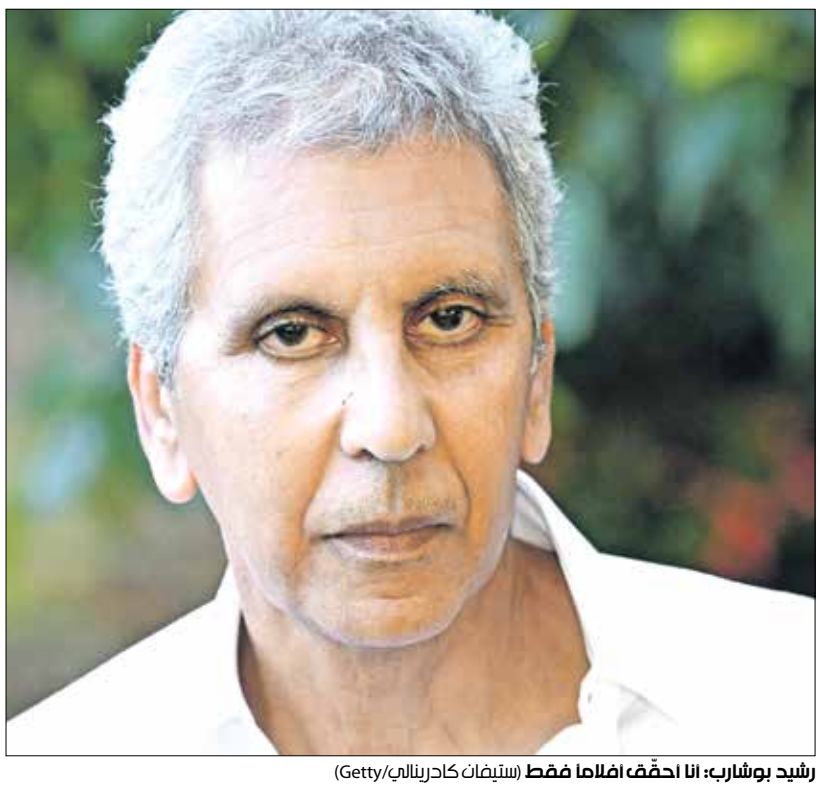

رشيد بوشارب: أنا أحقّق أفلاماً فقط (ستيفان كادرينالي/Getty)

رشيد بوشارب مخرج فرنسي من أصول جزائرية. في أفلامه يتناول مواضيع قوية تهزّ المفاهيم والأفكار المسبقة عن الهجرة والاستعمار الفرنسي والتمييز العرقي والعبودية. رائد تيار ظهر في فرنسا بداية ثمانينيات القرن الـ20، ولفت النظر ثقافياً إلى الوجود المغاربي في المجتمع الفرنسي. مؤلّف سينمائي ومنتج، حقّق 15 فيلماً روائياً طويلاً يستكشف معظمها، بنظرة مجدّدة، صدمات الاستعمار.
فيلمه المشهور «السكان الأصليون» (2006) عن مساهمة الجنود الأفارقة في حروب الجيش الفرنسي. أما «الخارجون عن القانون» (2010)، فعن الاستعمار الفرنسي في الجزائر، عبر تقاطع مصائر ثلاثة إخوة مُقتَلَعين من جزائرهم، مع مصير أمة تناضل من أجل حريتها. بينما يتطرّق «نهر لندن» (2009) إلى أثر اعتداءات «11 سبتمبر» (2001) على حياة أناس عاديين من أديان مختلفة. ويطرح «السنغال الصغير» (2001) آثار ما بعد العبودية. تتساءل أفلامه عن تأثير التاريخ على المصائر والهويات. يعتبر أنّه أعطى وجهاً للتاريخ الاستعماري الفرنسي في الجزائر، وبقية المستعمرات. لكنّ هذا لا يمنعه من نزهات قصيرة، كما يقول، بين حين وآخر، إلى مواضيع أخرى، أخفّ. شارك بوشارب في الدورة الـ12 (4 ـ 10 أكتوبر/تشرين الأول 2024) لـ«مهرجان وهران الدولي للفيلم العربي»، للتحدّث عن تجربته السينمائية في «ماستركلاس» أداره الناقد والباحث السينمائي الجزائري أحمد بجاوي.
في هذه المناسبة، حاورته «العربي الجديد».

■ تتّسم سينماك بأنّها إنسانية وسياسية، تتناول مواضيع جادة: الاستعمار، الهجرة، العبودية. متى تقرّر إثارة موضوع ما بعينه؟

بدأت بمسألة الهجرة، ثم أخذت بسرد قضايا عرفتها في شبابي. حياة والديّ مثلاً، والتزامهما حركة التحرير ومعايشتهما الاستعمار. أستوحي قصص العائلة، التي تقودني من موضوع إلى آخر. بدا لي مُهمّاً أنْ أثير ما عشته لسهولته، ولتوفّر شهادات مباشرة من دون بذل جهد. كنت أشعر بنفسي مرتاحاً لتحقيق أفلام عن مواضيع خبرتها، وكنت قريباً منها.

■ هل يتعلّق الأمر أكثر بارتياحك لهذه المواضيع وسهولة معالجتها، أم لأهميتها بالنسبة إليك؟

بالتأكيد، يُشكّل تناولها بالنسبة إليّ سهولة وارتياحاً. لكنْ السينما ليست لعمل مناشير سياسية، ولا مقالة في جريدة. الفن السينمائي يهمّني أولاً، وقوة هذه القضايا تجعل منها مادة سينمائية بامتياز. كما أنها لم تكن تُطرح آنذاك إلا قليلاً في فرنسا. مواضيع، كأبناء المهاجرين وحرب الجزائر وغير ذلك، كانت غائبة رغم صلاحيتها للمعالجة سينمائياً طرحتها في «الخارجون عن القانون».

■ أنت الآن تُعتبر دعامة هذه السينما في فرنسا، وأول من أثار هذه القضايا.

نعم. كان الوضع حينها مختلفاً. كنت تقريباً الوحيد في مدرسة السينما من أصول شمال أفريقية. كان هناك أيضاً مهدي شارف، الذي تعود أصوله مثلي إلى «مغنيّة»، المنطقة الواقعة على الحدود الجزائرية ـ المغربية. كان عدد الممثلين من ذوي الأصول العربية قليلاً جداً حينها. لم تكن الأسس الفنية لكلّ الأصول المهاجرة مبنيّة بعد.
عندما التقيت فرقة «كارت دو سيجور» (بطاقة إقامة)، ولعلّك تعرفينها، ومعهم رشيد طه، شكّلنا نواة هذا الجيل، الذي بدأ يظهر معاً، وتدريجياً، ويقول إنّه موجود. إنّه اليوم مع نجومٍ عديدين مثله.

■ نجوم نعم، وأنت أحدهم الآن.

أنا أحقّق أفلاماً فقط، يُمكن القول إنّها باتت أهمّ اليوم بعد انتشارها في العالم. أفلامٌ عن العبودية وحرب فيتنام والهجرة الجزائرية إلى فرنسا. إنّها المرة الأولى التي يُعرض فيها هذا النوع في فرنسا والعالم. أثارت اهتماماً بهذا الماضي عن الجزائر والاستعمار. كنت أمشي في درب خالية. عندها، بدأ البناء، وظهر ممثّلون في موازاة هذا، وكذلك كتّاب وموسيقيون. بدأنا معاً، وتابع كلٌّ في فضائه، مع التقائنا طبعاً.

■ هل يمكن وصف ما جرى بأنّه تيار أو موجة؟

نعم. كانت مرحلة خرج فيها أبناء المهاجرين من وضع حُبِس فيه آباؤهم، لينطلقوا في منحى آخر، ويتطوّروا في المجال الفني. إنّما لزم للممثلين وقت أطول لفرض النفس. أو بالأحرى لجعل الجمهور يتقبّل وجوهاً مختلفة عما يألفه. لكنّهم ما لبثوا أنْ وصلوا، بفضل هذه الطاقة. تجمّعت العوامل التي تُتيح وجود أعمال كأعمالنا. كان ضرورياً لها أنْ تنوجد.

■ قياساً إلى هذه الحركة الفنية أو الموجة، كيف ترى الوضع حالياً في فرنسا؟

هناك تراجع في ما يخصّ الهجرة. حين يُقال إنّ تلك لم تحقّق شيئاً لفرنسا، فهذا خاطئ تماماً. يُمكننا رؤية ما حقّقه المهاجرون اقتصادياً لبناء فرنسا بعد الحرب. كانوا يُحضَرون أفواجاً عبر المراكب للمساهمة في البناء وتغذية مصانع، كـ«بيجو» و«رينو» و«سيتروين». ساهمت عائلتي في بناء اقتصاد فرنسا. بعدها، حلّت الرياضة، فوُجد مهاجرون في اللعبة الأكثر شعبية، محقّقين مع زملائهم كأس العالم (بطولة العالم 1998 ـ المحرّرة).
يجب ألّا ننسى عن ذلك. أعطى الفوز حينها أملاً، وانطلق الشعار «أسود، أبيض، زبدة» (تعبيراً عن المكوّنات العرقية لفرنسا، المحرّرة)، وسرى إحساسٌ بأنّ شيئاً ما سيتمخّض عن هذه الحماسة والإنجازات. ساد الأمل. اليوم، انقلب الحال وتقهقر. بل انهار كلّ شيء.

■ لكنْ، سينمائياً، نرى فنانين من أصول عربية أكثر فأكثر في السينما الفرنسية. بهذا المعنى، أليس هناك تطوّر ما؟

حصل التطور منذ نحو عشر سنوات، إذْ توفرت مساحة لمواضيع مغايرة تُحكى، ووصل ممثّلون، كسامي بو عجيلة وجمال دبوز ورشدي زم، وظهر في الموسيقى الشاب خالد، وجميع هؤلاء نجحوا نجاحاً كبيراً.

■ هل يعني هذا أنّ السياق الفني تابع مسيرته وتطوّره، على عكس الاجتماعي؟

لا أرى لمَ لا يكون بوسعه المتابعة. كلّ ما يقال عن الهجرة في فرنسا، والنقاش في الأوساط السياسية، لن يوقف هذه المواهب، أو يعوق تقديم الجديد: طاهر رحيم وليلى بختي وغيرهما مثلاً. لا يُمكن اليوم صنع فيلم في فرنسا عن مجتمع لا يمثّل الواقع. إنّه يفرض نفسه على السينما، ويجب أنْ نُريه كما هو. سابقاً، كنّا نبدي باستمرار صورة سلبية، فالمغاربي هو المجرم الذي تبحث عنه الشرطة في فيلم بوليسي، وهو ما يحصل مع السود في السينما الأميركية. في فرنسا، حرّكنا هذه الصورة، ولم يعد مُمكناً إعطاء المغاربي هذا الدور السيئ.

■ في حوار قديم معك، تقول وإنْ كنّا ولدنا في فرنسا، فكلّ يوم نُذكَّر بانتمائنا إلى المهاجرين. هل لا تزال تشعر بهذا اليوم؟

بل أسوأ. الأمور تنقلب، وتسود أوضاع جديدة مردّها مواقف السياسيين. السياسة تقود في هذا الاتجاه، وتضع قضية الهجرة في المركز. هناك خلطٌ في المفاهيم، وعدم فصل بين الهجرتين القديمة والحديثة. مضى على القديمة أكثر من 70 عاماً، ومنها جيل والدي. اليوم، تصريحات السياسيين تخدم مصالحهم، وهم يدّعون أنّ المهاجرين يُحوّلون فرنسا في العمق. لكني لا ألمس هذا. حين نعبر قراها وبلداتها، لا يمكننا القول إن تغييراً عميقاً أصاب الشعب الفرنسي. هذه مواضيع تُستَغلّ وتعاد إلى الواجهة.

■ بما أنك أشرت إلى السياسة، أغتنم الفرصة لأسألك عن تواقيع فنانين ومثقفين فرنسيين، وبعضهم من أصول عربية، لإدانة العدوان على غزة، أو المطالبة بوقف إطلاق النار. لكنّي لم أجد اسمك في أيّ منها. ما ردّك؟ أأنت ضد توقيع العرائض مثلاً، أم لديك موقف آخر؟

لم أكن في فرنسا، والأمر ليس هكذا. أنا أصنع أفلاماً عن الاستعمار و...

■ (مُقاطعة) نعم، لكنّ الاستعمار الفرنسي في الجزائر.

صحيح. لكنّ تناولي موضوع الاستعمار دليلٌ كاف بحدّ ذاته، كما فعلت في «الخارجون عن القانون»: الشخصيات تختار الحرية، وتعمل لنيل الاستقلال.

سيرة مختصرة

مولودٌ في باريس، في الأول من سبتمبر/أيلول 1953، بات رشيد بوشارب، جزائري الأصل، مخرجاً ومنتجاً منذ مطلع ثمانينيات القرن الـ20. أخرج أفلاماً للتلفزيون أيضاً، وفيه عمل أولاً مساعدَ مخرج بين عامي 1977 و1984. له أفلام روائية قصيرة أيضاً. عام 1985، أخرج أول روائي طويل بعنوان Baton Rouge، وذلك بعد ثلاثة أعوام فقط على أول روائي قصير Peut - Etre La Mer.